المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك سعود
كرسي القرآن الكريم وعلومه

كرسي القرآن الكريم وعلومه
Chair of Qur'anic Sciences

جامعة الملك سعود
King Saud University

الانتصار للقرآن
إسهام في التقعيد

بحث مقدَّم
للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية
٦/٤/١٤٣٤ هـ - ١٦/٢/٢٠١٣م

إعداد
أ.د. أحمد بوعود

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية
International Conference for the development of Quranic Studies

الانتصار للقرآن
إسهام في التقعيد

بحث مقدَّم
للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية
٦/٤/١٤٣٤هـ - ١٦/٢/٢٠١٣م

إعداد
أ.د. أحمد بوعود

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة الذاتية

الاسم : أحمد بوعـود

الوظيفة: أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي بأكاديمية طنجة تطوان-المغرب

المؤهلات العلمية:

- دكتوراه في الفلسفة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، ببحث موضوعه: الهيرمينوطيقا والنص القرآني.. مقاربة تأويلية مقارنة لمفهوم الإنسان في القرآن الكريم.
- دكتوراه في الدراسات الإسلامية، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ببحث موضوعه علوم القرآن في المنظور الحداثي.. دراسة تحليلية ونقدية.
- دبلوم الدراسات العليا المعمقة في الدراسات الإسلامية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب سايس فاس، ببحث موضوعه تحليل النص القرآني عند محمد أركون.. دراسة وصفية ونقدية.
- الإجازة العليا في أصول الدين، جامعة القرويين.

العضوية في الهيئات العلمية والأكاديمية:

- عضو هيأة التحكيم بمجلة الجامعة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.
- عضو فريق الإشراف على ملتقى الانتصار للقرآن الكريم، التابع لمركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض.

الكتب المنشورة:

١- مقاصد الشريعة من النظر إلى السلوك، دار السلام، القاهرة ٢٠١١.

٢- الظاهرة القرآنية عند محمد أركون.. تحليل ونقد، منشورات الزمن، سلسلة شرفات، الرباط ٢٠١٠.

3- Muhammad Prophet for Our Time.. An Evaluative Study of Karen Armstrong's Point of View, Dar Alsalam, Cairo 2010.

٤- ظاهرة التطرف من معالجة الآثار إلى دراسة الأسباب، بالاشتراك مع مجموعة من المفكرين والكتاب، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، الدوحة، ٢٠٠٧.

٥- الاجتهاد بين حقائق التاريخ ومتطلبات الواقع، دار السلام، القاهرة ٢٠٠٥.

٦- رسالة المسلم في حقبة العولمة، بالاشتراك، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، الدوحة، ٢٠٠٣.

٧- فقه الواقع أصول وضوابط، سلسلة كتاب الأمة، عام ٢٠٠٠، دار السلام، القاهرة ٢٠٠٦.

كتب قيد الطبع:

١- علوم القرآن في المنظور الحداثي.. دراسة تحليلة نقدية لآراء الحداثيين حول القرآن الكريم (دار الكتاب الجديد بيروت).

٢- مفهوم الجاهلية وعلاقته بالتكفير.. دراسة تقويمية (دار السلام القاهرة).

المؤتمرات والندوات:

شارك في مجموعة من الندوات والمؤتمرات في مجالات الدراسات القرآنية والشرعية والفكرية بكل من المغرب وتونس والسعودية وعُمان وماليزيا وتركيا وبريطانيا.

ملخص البحث

قصد هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية: ما مشروعية علم الانتصار للقرآن وما مقاصده؟ وما مجالاته وما موضوعاته؟ وما منهجه وما أدواته؟

وذلك من خلال:

- مقدمة تبين أهمية الموضوع وقيمته وعناصر الجدة فيه والمنهج المتبع.
- المبحث الأول: مشروعية علم الانتصار للقرآن ومقاصده.
- المبحث الثاني: مجالات علم الانتصار للقرآن وموضوعاته.
- المبحث الثالث: منهج علم الانتصار للقرآن أدواته.
- خاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

وقد استعان الباحث بمنهج ذي بعدين: وصفي وتحليلي.

وهكذا بين البحث أن الانتصار للقرآن الكريم ليس بالشيء الغريب عن الدراسات القرآنية، رغم أنه لم يُسمَّ علما. وأول ما يمكن الاعتماد عليه في التأصيل لهذا العلم هو القرآن الكريم نفسه. كما أن الانتصار للقرآن كان له نصيب مهم في علم الكلام، حتى إن الباقلاني - رحمه الله- ألف كتاباً في الرد علي الطاعنين في القرآن سماه: الانتصار للقرآن.

كما أوضح البحث أيضاً أن واقع الدراسات القرآنية المعاصرة يؤكد الحاجة إلى قيام علم الانتصار للقرآن تكون غايته رد شبهات الدارسين عن القرآن الكريم. فقد كثرت دراساتهم اليوم وتناسلت. وهنا يمكن أن نتحدث أيضا عن الاستشراق بمختلف توجهاته. كما يمكن أن نتحدث أيضا عن دراسات المفكرين الحداثيين المسلمين حول القرآن وقضاياه. كما لا يمكن

أن نغفل، تبعاً لذلك، ما ورثه المسلمون من تراث فكري بحاجة إلى نقد وتمحيص حتى لا يكون تكأة لكل مغرض.

وقد أجمل البحث مجالات علم الانتصار للقرآن في ثلاثة هي: مجال التراث، ومجال الاستشراق، ومجال الدراسات الفكرية الحداثية. وتجدر الإشارة إلى أن المجالين الأخيرين يأخذان عن المجال الأول. كما أكد أن أساس علم الانتصار للقرآن هو نقد الشبهات والطعون حول القرآن المنافية لربانيته وقدسيته، لذا فإن منهج علم الانتصار هو المنهج النقدي. ولبلوغ هذا النقد لا بد من خطوتين رئيستين هما الوصف والتحليل. وبما أن لكل علم أدواته، لا بد للانتصار للقرآن من أدوات تختلف باختلاف مجال الدراسة. وقد عرض البحث مجموعة من الأدوات المرتبطة بكل مجال من المجالات الثلاثة.

المقدمة

إن استقراء الواقع الفكري المعاصر يفيد أن هناك كثيراً من الشبه المثارة حول القرآن الكريم من قبل المستشرقين والمبشرين قصد الطعن في الإسلام، يتلقفها الإنسان في الغرب والشرق فتضله عن الحق. كما أن كثيرا من المفكرين الحداثيين المنتسبين للإسلام يروجون هذه الشبه بدعوى الحداثة، تقليدا للغرب، عن وعي بخطورتها أو عن غير وعي. وتصورهم هذا يرتكز على الحداثة الغربية، كما يرتكز على الدراسات الاستشراقية وكتب التراث (تراث علوم القرآن، تراث علم الكلام...)؛ حيث هناك كثير من الأقوال الشاذة تنافي قداسة القرآن الكريم. وهذا يضعنا أمام قضية مساءلة التراث ونقده وتقويمه...

هذا، وقد عرف الفكر الإسلامي صنفاً علميًّا رفيع المستوى، سمي بعلم الكلام، كان الغرض منه الدفاع عن العقائد الإسلامية، وضمنه نوقشت قضايا من قبيل خلق القرآن، وطبيعة كلام الله وغير ذلك. وكان من جملة من تحدثوا عن هذه القضايا العقدية المرتبطة بالقرآن الكريم وفصلوا فيها القول، مدافعين ومنافحين، المتكلم أبو بكر الطيب الباقلاني في كتابه الانتصار للقرآن.

واليوم تدعو الضرورة إلى قيام علم الانتصار للقرآن، وتأصيله وتقعيده، خاصة وأننا في واقع كَثُرَ فيه الهجوم على القرآن من الغريب والقريب وأهل الدار. وتكون غاية هذا العلم هي التصدي لهاته الشبهات والطعون بمنهج علمي دقيق وأدوات علمية يتسلح بها الباحثون.

من هنا نتساءل: ما مشروعية علم الانتصار للقرآن وما مقاصده؟ وما مجالاته وما موضوعاته؟ وما منهجه وما أدواته؟

هذا ما يروم البحث الإجابة عنه من خلال:

- مقدمة: تبين أهمية الموضوع وقيمته وعناصر الجِدّة فيه والمنهج المتبع.
- المبحث الأول: مشروعية علم الانتصار للقرآن ومقاصده.
- المبحث الثاني: مجالات علم الانتصار للقرآن وموضوعاته.
- المبحث الثالث: منهج علم الانتصار للقرآن وأدواته.
- خاتمة: تبين أهم النتائج المتوصل إليها والتوصيات المستخلصة.

وتجدر الإشارة إلى أن تناول موضع هذا البحث سيكون بمنهج ذي بعدين:

- بعد وصفي، حيث سيصف الباحث كل ما يرتبط بهذا العلم حسب موضوعات المباحث.
- بعد تحليلي، ويقوم أساسا على التفسير والشرح، وذلك بغية بناء تصور عام مقنع لعلم الانتصار للقرآن الكريم، من حيث مشروعيته ومقاصده ومجالاته وموضوعاته ومنهجه وأدواته.

والله المستعان.

المبحث الأول:
مشروعية علم الانتصار للقرآن ومقاصده

يكتسب علم الانتصار للقرآن مشروعيته من مقاصده ومما يحققه من ثمار خدمةً للقرآن الكريم ولدين الله ﷻ. وإذا كان "الانتصار للقرآن هو التصدي للطاعنين فيه ودحض شبهاتهم بأدوات الوقت"(١)، فإن لذلك أصولا في القرآن الكريم والسنة النبوية وتاريخ الفكر الإسلامي، وتحديدا علم الكلام. من هنا، فإن الحديث عن مشروعية الانتصار للقرآن الكريم يقتضي الحديث عن الانتصار للقرآن من خلال القرآن نفسه، ومن خلال علم الكلام، وكذلك من خلال الواقع الفكري المعاصر.

١- مشروعة الانتصار من خلال القرآن

تعرض القرآن الكريم للطعن والتكذيب منذ نزوله على نبينا محمد ﷺ. ورغم أن الله ﷻ قد تكفل بحفظه إلى يوم الدين، فإنه كانت تنزل آيات تطمئن المؤمنين وترد على شبهات الكفار والمشركين، من جهة، وتقصد إلى إقناع الضالين وهداية التائهين من جهة أخرى.

لقد ادعى الكفار والمشركون أن القرآن مجرد أساطير، تكذيباً وعناداً. وقد حكى القرآن عن تكذيبهم وعنادهم في أكثر من موضع وفند أطروحاتهم هاته، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ

---

(١) هذا هو مقترح الباحث لتعريف علم الانتصار للقرآن .

أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل: ٢٤-٢٥]. وفي مقابل هؤلاء الكفار، هناك المؤمنون الذين آمنوا بأن ما أنزل على نبينا محمد ﷺ هو الخير والحق، ومن كان كذلك فجزاؤه الحسنى في الدنيا والآخرة. يقول ﷻ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣٠)﴾ [النحل: ٣٠]. وفي هذه الآيات أيضا تحذير للكفار من عاقبة كفرهم بالقرآن الكريم وبشارة للمؤمنين.

وقد ذكر المفسرون أن قريشاً لما أهمهم أمر النبي ﷺ، ورأوا تأثير القرآن في نفوس الناس، وأخذ أتباع الإسلام يكثرون، وصار الواردون إلى مكة في موسم الحج وغيره يسألون الناس عن هذا القرآن، وماذا يدعو إليه، دبر لهم الوليد بن المغيرة معاذير واختلاقاً يختلقونه ليقنعوا السائلين به، فندب منهم ستة عشر رجلاً بعثهم أيام الموسم يقعدون في عقبات مكة وطرقها التي يرد منها الناس، يقولون لمن سألهم: لا تغتروا بهذا الذي يدعي أنه نبي فإنه مجنون، أو ساحر، أو شاعر أو كاهن، وأن الكلام الذي يقوله أساطير من أساطير الأولين اكتتبها⁽¹⁾.

وهذه القصة تبين إلى أي حد كان الطعن في القرآن الكريم أمراً مخططاً ومدبراً له، وليس شأناً فرديًا، بل إنه يشبه إلى حد بعيد العمل الذي تقوم

---

(١) ينظر: **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر ابن عاشور، (دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت)، ١٥/١٣٠.

به بعض الدوائر والمؤسسات التي تتدثر بدثار الأكاديمية. ويذكرني هذا بالشرارة الأولى لانطلاق الاستشراق الذي سيأتي الحديث عنه.

وفي رد عجيب على قولهم بالأساطير عندما أنكروا البعث، وهو مما جاء به القرآن، حين ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ (٨٢) لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣]، طلب الله عز وجل من نبيه ﷺ محاورتهم وسؤالهم عن أشياء يعرفونها ويعتقدونها اعتقاداً صحيحاً، وهي مقدمات ومسلمات تؤدي إلى الاعتقاد الصحيح بالقرآن الكريم. يقول سبحانه: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وكثيرة هي الآيات التي تتحدث عن وصف الكفار والمشركين للنبي محمد ﷺ بالساحر والكاهن والشاعر والكذاب والمجنون والضال. يقول الله تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ (٢٩) أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ (٣٠) قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ [الطور: ٢٩-٣١]. وتعدد هذه الأوصاف إنما يكشف عن الرفض من أجل الرفض فقط، دون حجة علمية. وما أسهل أن يصف المرء غيره بأنه يهذي أو يخرف عند افتقاره للحجة والقدرة على الحجاج. ويُطَمئِن الله تعالى النبي ﷺ وأتباعه بأن التكذيب ليس حاصلا لكفار قريش، وإنما كان في الأقوام الماضية أيضا: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ (٥٢) ﴾ [الذاريات: ٥٢]. يقول الإمام القرطبي - رحمه الله - معلقا على هذه

الآية: "هذا تسلية للنبي ﷺ؛ أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كذب من قبلهم وقالوا مثل قولهم"(١) . وهذه سنة المكذبين الجاحدين.

وما يسقط حجةَ الكفار ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣]؛ حيث يخبرنا عز وجل أن المشركين كانوا يقولون إن محمداً إنما تعلم القرآن على يد بشر، ويشيرون إلى "رجل أعجمي - كان بين أظهرهم- غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعا يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى رادا عليهم في افترائهم ذلك: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، يعني: القرآن أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة - التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل - كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل"(٢).

إن الرد على الكفار والملحدين سيكتسي قوة ومعجزة؛ فلو كان القرآن مفترى ومن صنع بشر فليأت به من يستطع ذلك، فردا أو جماعة. وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (دار الفكر، د.ت)، ٥١/١٧.

(٢) **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، (دار طيبة، ١٤٢٢-٢٠٠٢)، ١٠٣/٤.

هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء: ٨٨]. ثم ينقص من قوة التحدي: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾ [هود: ١٣-١٤]. ويزيد في إنقاص قوة التحدي لأنه لا مجيب للتحدي الأقوى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩) ﴾ [يونس: ٣٧-٣٩].

هذه عينة من الأمثلة على رد القرآن الكريم على دعاوى الطاعنين فيه والمبطلين والمتأولين. والغاية من ذاك الردِّ إبطالُ حجتهم، وهدايةُ الحائرين، وتثبيتُ قلب النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين.

٢- مشروعية الانتصار للقرآن من علم الكلام

تباينت المواقف بشأن علم الكلام بين معتبر له ورافض. ولا يسمح المقام هنا بإيراد تفاصيل ذاك التباين، وسينتصر الباحث للموقف الذي يعتبر علم الكلام ويقول به تماشيا مع السواد الأعظم من علماء المسلمين، واعتبارا لما قدمه من خدمات جليلة في الفكر الإسلامي. يقول الحسن البصري رحمه الله مبرزا الحاجة إلى علم الكلام: "لم يكن أحد من السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه؛ لأنهم كانوا على أمر واحد، وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس من أنكره له فلما أحدث المحدثون في دينهم أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يطلبون به المحدثات ويحرزون

من المهلكات"(١). وتجدر الإشارة إلى أن الباحث يتحفظ على ما آل إليه هذا العلم من انحراف عن غاياته وانحطاط في تناول موضوعاته.

واليوم، تبدو الحاجة ملحة إلى تجديد النظر في علم الكلام وتنقيته مما علق به من أمور ليست منه، ومن شوائب شوهته، وذلك حتى يمكن أن يؤدي وظيفته في زمن يموج بالأفكار والعقائد. فقد "كان علماء الكلام أول نشأة علم أصول الدين فئات من جند الإسلام يدفعون عن العقيدة عوادي الفلسفة المادية الإغريقية، وغوائل السحر المشرقي، ووثنية الهند والسند، وضلالات الفرس. كان المعتزلة قبل أن يزيغوا فيالق الجهاد وصوب الأشاعرة قبل أن تنحط المدارك لتتحول أفخاخا وتتعفن العقول أراضي سباخا. في زمامنا ينبري العلماء الرواد لتقويض الدعائم التي أسس عليها الإلحاد بنيانه. وفي مناوشته إشغال للعدو الجاحد الملحد المتستر بإلحاده، واللاييكي المستنجد لحلفائه، والمفكر المادي الناهض بأعباء ما حمل من أوزار الطعن في إسلام المسلمين وعقيدتهم وقرآنهم وتاريخهم المؤسس"(٢).

---

(١) **باب ذكر المعتزله من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل**، أحمد بن يحيي المرتضي، تصحيح توما أرنلد، (مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد، الدكن، ١٣١٦)، ص ١٣.

(٢) **الرسالة العلمية**، عبد السلام ياسين، (مطبوعات الهلال، وجدة، ٢٠٠١)، ص ١٨-٢١ (بتصرف).

فكيف عُرِّف علم الكلام؟

عُرِّف علم الكلام بتعاريف منها: "العلم الذي يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية،، والرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات من مذاهب السلف وأهل السنة"(١). وهو أيضا "علم يقتدر معه إثبات العقائد الإيمانية بإيراد الحجج ودفع الشبه"(٢).

من خلال هذه التعاريف نستنتج أن علم الكلام موضوعه العقائد الإيمانية، أي كل ما له ارتباط بعقيدة المؤمن؛ ما يثبتها وما يزعزعها. ووسيلة إثبات هذه العقائد هي الحجاج عنها، وذلك باستخدام أدلة عقلية يقينية، وغايته دفع الشبه عن هذه العقائد دحض كل ما يمكنه زعزعتها.

ويجعل الإيجي "مسألة كلام الله تعالى (القرآن) أشهر أجزائه حتى كثر فيه التشاجر والسفك فغلب عليه"(٣). هذا بالإضافة إلى أن قضايا علم الكلام مرتبطة في الغالب بالقرآن، سواء من حيث التأويل الذي عَرَفَ تجاذبا كبيرا بين مختلف طوائف المتكلمين وغيرهم، أو الإعجاز الذي تنوعت بشأنه المواقف بين الكلاميين، دون أن نغفل هنا قضية الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله الذي عُذِّب بشأنها، ألا وهي قضية خلق القرآن. ولا يسمح المقام بالتطويل. ويكفي هذا للحكم بأن القرآن الكريم شغل حيزا مهما في علم الكلام.

---

(١) **المقدمة**، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، (بيت الفنون والعلوم و الآداب، الدار البيضاء ٢٠٠٥)، ٢٣/٣.

(٢) **المواقف في علم الكلام**، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، (عالم الكتب، بيروت، د.ت) ص ٧.

(٣) نفسه ص ٩.

والحديث عن القرآن وعلم الكلام لابد وأن يجرنا للتطرق إلى الباقلاني رحمه الله (٤٠٣ هـ) وكتابه الانتصار للقرآن؛ لأنه أصل فكرة هذا البحث. والإمام الباقلاني هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، أبو بكر القاضي الباقلاني البصري المتكلم الفقيه. توجه إلى علم الكلام نظرا لكثرة الملحدين في العراق في القرن الرابع الهجري، كما عُرف بدفاعه عن آراء أبي الحسن الأشعري، وبجداله الشديد للمعتزلة وأنصارهم. وقال عنه ابن تيمية: "إنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري وليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده"(١). يحكى أنه صَنَّفَ سبعين ألف ورقة في الدفاع عن الدين والرد على المخالفين والملحدين والمتفلسفين.

يجمل الباقلاني في مقدمته الغاية من تأليف كتاب الانتصار للقرآن في: "إقامة البرهان على استفاضة أمره وإحاطة السلف بعلمه، وانقطاع العُذر في نقله وقيام الحُجة على الخلق به، وإبطال ما يدعيه أهلُ الضلال، من تحريفه وتغييره ودخول الخَلَل فيه، وذهاب شيءٍ كثيرٍ منه، وزيادة أمور فيه، وما يدّعيه أهلُ الإلحاد وشيعتُهم من منتحلي الإسلام، من تناقُض كثيرٍ منه، وخلوّ بعضه من الفائدة، وكونه غير متناسب، وما ذكروه من فساد النظم، ودخول اللحن فيه، وركاكة التكرار، وقلة البيان، وتأخّر المقدم، وتقديم المؤخر، إلى غير ذلك من وجوه مطاعنهم، وذكر

---

(١) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، (دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤٠٦– ١٩٨٦)، ٢٢/٥.

جُمَلٍ مما رُوي من الحروف الزائدة، والقراءات المخالفة لمصحف الجماعة، والإبانة عن وَهَاءِ نقل ذلك وضعفه، وأن الحجة لم تقم بشيءٍ منه، وعرفت ما وصفتموه من كثرة استطراد الضعفاء بتمويههم وعظم موقع الاستبصار والانتفاع ببعضِ شبههم، ونحن بحول الله وعونه نأتي في ذلك بجُمَلٍ تزيل الريبَ والشبهة"(١). وهذه كلها قضايا في الدفاع عن القرآن ورد الشبه عنه والانتصار له، لكن بنفس كلامي جديد.

٣- مشروعية علم الانتصار من واقع الدراسات القرآنية

لقد حصل فراغ فكري للمسلمين في القرون المتأخرة، مقابل تقدم غربي كان هو الحاسم في ظهور الحداثة في بلاد المسلمين، حيث استُقدمت جاهزة للتنزيل في بيئة غير بيئتها، فكان القرآن الكريم أهم ما تناولته بأدواتها بما فيها من لوازم المادية المؤلهة للعقل. من هنا لم تكن الدراسات القرآنية لتستقيم بهذه الأدوات، وتدل على ذلك النتائج التي توصلوا إليها والتي تناقض ربانية القرآن الكريم وقداسته. وما أكثر ما ينشر من دراسات وكتب في هذا المضمار، يصعب على كثيرين تمييزها.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من الدراسات القرآنية في التراث الإسلامي، تنتمي إلى ما سمي في الفكر الإسلامي بقرون الجمود، حيث توقف العقل المسلم عن الإبداع. وقد شمل هذا الجمود كل أجناس

---

(١) **الانتصار للقرآن**، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، تحقيق محمد عصام القضاة، (دار الفتح- عَمَّان، دار ابن حزم - بيروت، ط ١، ١٤٢٢-٢٠٠١)، ٥٧/١.

الفكر والإبداع. ورغم ذلك، فقد كان يظهر من حين لآخر إنتاج فكري يحاول التمرد على الأعراف التقليدية السائدة والتخلص من موروثات الجمود التي أخذت تتحكم في الفكر... ويمكن القول إن قرون التقليد الجمود تمثل نموذجاً لأزمة العقل المسلم.

كما أن الساحة الفكرية تحفل بدراسات المستشرقين الذين تصدوا للقرآن الكريم بمناهجهم النابعة من معتقداتهم، رغم أن هذه الدراسة غالبا ما تغلف بغلاف العلم. والخلل الكبير الذي يستنتج من دراسة المستشرقين هو إسقاط تصورات العقيدة المسيحية المضطربة والمحرفة والعقائد المادية على القرآن الكريم. وهذا الإسقاط كما يبدو لكل ذي عقل لا يستقيم والمنهج العلمي، بل إنه ليس من العلم في شيء. لكن يبدو أن الانبهار بالقوي والمتقدم (المستشرق) كان له تأثيره على المفكر المسلم الذي ورث عصور الانحطاط والمتطلع إلى الحداثة، فانطلق يردد المقولات ويؤصل للتصورات.

ويتفق أغلب الباحثين في الاستشراق على أن نقطة بداية الاهتمام بالقرآن الكريم تمثلت في ترجمته إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٤٣. وقد نسبت هذه الترجمة إلى فريق الأب بطرس المبجل Pedro El Venerable (١٠٩٦-١١٥٧). وقصة هذه الترجمة كما يحكي يوهان فوك تعود إلى نجاح المسلمين على أراضي إسبانيا، يقول: "ولقد كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن واللغة العربية. فكلما تلاشى الأمل في تحقيق نصر نهائي بقوة السلاح، بدا واضحا أن احتلال البقاع المقدسة لم يؤد إلى ثني المسلمين عن دينهم، بقدر ما أدى إلى عكس ذلك، وهو تأثر المقاتلين الصليبيين بحضارة المسلمين وتقاليد

معيشتهم في حلبات الفكر. وقبل حدوث واقعة (إيديسياس) في شهر ديسمبر من سنة ١١٤٣، وهي السنة التي رُد فيها الصليبيون على أعقابهم، ظهرت أول ترجمة لاتينية للقرآن في سنة ١١٤٣"(١).

وإضافة إلى ترجمة القرآن الكريم أنجز الأوربيون دراسات حول القرآن الكريم، اهتمت أساسا بموضوعات من قبيل: مصدر القرآن الكريم وتأثره بغيره من الكتب، ونزوله، وجمعه، وقراءاته... كما اهتم الاستشراق المعاصر بإنجاز موسوعات تعريفية بالإسلام وبالقرآن الكريم. وتعتبر دائرة المعارف الإسلامية(٢) من أهم ما يمكن الحديث عنه ضمن اهتمام المستشرقين بالقرآن الكريم. وقد صدرت طبعتها الأولى بثلاث لغات هي: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، ابتداء من العام ١٩١٤ وحتى العام ١٩٤٢. وكما يبدو من خلال الصفحة الأولى منها أن دائرة المعارف هذه أنجزت تحت إشراف عمالقة المستشرقين وبإدارتهم ومراجعتهم. ويمكن أن نقرأ مثلا: هاملتون جيب، وليفي بروفنسال، وجوزيف شاخت، وبرنارد لويس... فضلا عن الذين أسهموا في إنجاز موادها ومقالاتها.

---

(١) **تاريخ حركة الاستشراق.. الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين**، يوهان فوك، ترجمة عمر لطفي العالم، (دار المدى الإسلامي، لبنان، ط٢، ٢٠٠١)، ص ١٦-١٧.

(٢) نظرة خاطفة إلى صفحات المؤلفين الثلاث من المجلد الأول تكشف لنا عن وجود أسماء إسلامية أذكر منها: فضل الرحمن (جامعة ماك جيل، مونتريال)، وحلمي أحمد (جامعة القاهرة)، ومحمد خلف الله (جامعة الإسكندرية). ينظر:

The Encyclopaedia of Islam, prepared by a number of Leading Orientalists, (E. J. Brill, Leiden, 1986). V. I. p.V-VII.

في هذه الموسوعة نجد مادة القرآن Al-Kuran تشمل ما يزيد عن ثلاثين صفحة(١). وقد تناولت القرآن الكريم من خلال النظر في مجموعة من القضايا المرتبطة به، وهي في معظمها القضايا نفسها التي تناولها المستشرقون قديماً وحديثاً.

كما يمكن أن نتحدث هنا عن دائرة معارف القرآن وهي أحدث موسوعة(٢) وأهمها في مجال القرآن الكريم وعلومه. وتتضمن ستة مجلدات صدرت ابتداء من ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٦. وهي مرتبة بترتيب الحروف الأعجمية، إلا المجلد السادس فهو خاص بالفهارس. وقد صُدرت بمقدمة(٣) تضمنت العناصر الآتية: وصف القرآن، دراسة القرآن، عوامل جديدة في قراءة القرآن، إنشاء الموسوعة، استعمال الموسوعة، ثم خاتمة وتعقيب.

يتبين من خلال ما سبق أن الحاجة ملحة لقيام هذا العلم. وهذا من باب التجديد في مجال الدراسات القرآنية. إن لكل زمن قضاياه وانشغالاته العلمية، وزمننا هذا مليء بالعقائد المضطربة التي تشوش على

---

(١) Ibid p. 400-432.

(٢) هذه الموسوعة الضخمة نجدها بتحرير عام لجين دامين ماكوليف Jane Dammen McAuliffe، وبمجلس استشاري يتكون من مجموعة من الباحثين الغربيين إلى جانب باحثين عربيين مسلمين هما نصر حامد أبو زيد (جامعة ليدن) ومحمد أركون (جامعة السوربون). وهذان الباحثان لهما أيضا نصيب في تحرير بعض مواد الموسوعة.

(٣) *Encyclopaedia of the Qur_ān,* Jane Dammen McAuliffe, (Brill, Leiden, 2001) V.1. p.i-xiii.

المؤمنين بالإسلام والقرآن وتزيغ بهم عن الطريق المستقيم الذي ارتضاه لهم خالقهم. أما القرآن الكريم فهو محفوظ إلى يوم الدين، ولن ينال منه المغرضون والحاقدون. وإنما غرضنا من علم الانتصار أن نستهدف الكفار رغبة في إيمانهم بإقناعهم، وطمأنة المؤمنين أنهم على الحق المبين، وإعانة الحائرين على سلوك طريق الحق. وهذا هو منهج القرآن الكريم.

المبحث الثاني
علم الانتصار للقرآن: مجالاته وموضوعاته

إن مادة علم الانتصار للقرآن هي القرآن الكريم، بل عليه يدور، لكن من جهات التعرض للشبه المثارة حوله قصدَ دحضها وإثباتِ قداسته وربانيته ونزعِ الريبة والشك من صدور الشاكين والحائرين. ويتم هذا من خلال مجالات محددة وموضوعات معينة، قد تختلف باختلاف الأزمنة من حيث عرضها، ولكنها تمس في جوهرها القرآن الكريم. وهذا ليس بالجديد، وإنما كان منذ نزول أول آيات القرآن الكريم. فما هي هذه المجالات؟ وما موضوعاتها؟

لقد ثبت من خلال الاستقراء والمتابعة للدراسات القرآنية أن الشبهات المثارة حول القرآن الكريم تنتمي إلى ثلاثة مجالات رئيسة كبرى، هي: مجال التراث، ومجال الدراسات الاستشراقية، ومجال الدراسات الفكرية المعاصرة. ولكل مجال موضوعاته، وقد تتفرع عن كل مجال فروع. وفي هذا المبحث سنقول كلمة موجزة حول الموضوعات للدلالة على حجم المسئولية المنتظر أن يقوم بها بعلم الانتصار.

١ - مجال التراث

أعرض هنا لبعض القضايا التي تفرض مناقشة وتأملا، وتكشف عن ثغرات منهجية في تراث الدراسات القرآنية تنال من قداسة القرآن الكريم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحديث عن التراث يعني الحديث

عن جميع أصنافه ومجالاته ومستوياته، وليس تراث الدراسات القرآنية (التفسير وعلوم القرآن) فحسب. كما أشير إلى أن تناول هذه القضايا إنما هو للتمثيل فقط لا الحصر. وإلا لو أراد الباحث تتبع هذه الثغرات في جُل قضايا هذا الفن لاحتاج إلى بحوث. لذا، سأكتفي هنا بمثال النسخ في القرآن من كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

قال السيوطي(١) رحمه الله:

«النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب:

أحدها: ما نسخ تلاوته وحكمه معا. قالت عائشة: "كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن». رواه الشيخان(٢).

إن البخاري رحمه الله لم يخرج هذا الحديث. ثم ماذا يفهم من قول عائشة رضي الله عنها: «فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن»؟

هذه الرواية تطرح على الباحث السؤال التالي: هل يجوز النسخ بعد وفاة النبي ﷺ؟ وإلا فأين هي الآية الناسخة؟

الضرب الثاني: ما نسخ حكمه دون تلاوته؛ وهذا الضرب هو الذي

---

(١) ينظر **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (المدينة المنورة، ١٤٢٦)، ٤/ ١٤٤٠ وما بعدها.

(٢) **صحيح مسلم**، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩-١٩٩٨)، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس.

فيه الكتب المؤلفة، وهو على الحقيقة قليل جدا، وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه، فإن المحققين منهم كالقاضي أبي بكر بن العربي بين ذلك وأتقنه.

وقال ابن العربي: كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار والتولي والإعراض والكف عنهم فهو منسوخ بآية السيف وهي ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾الآية [التوبة: ٥] نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية(١)، ثم نسخ آخرُها أولَّها.

الضرب الثالث: ما نسخ تلاوته دون حكمه، ومما أورده فيه:

قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: "لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله، وما يدريه ما كله، قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر"(٢).

وقال: حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: "كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي ﷺ

---

(١) انظر **الموجز في الناسخ والمنسوخ** لابن خزيمة ص ٢٧٤. (ملحق **بالناسخ والمنسوخ** لأبي جعفر النحاس، تحقيق سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢-١٩٩١).

(٢) رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**، تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٥-١٩٩٥)، عن ابن عمر مرفوعا، ١٤٦/٢. وقد علق الباقلاني رحمه على قول ابن عمر قائلا: "إن المقصود دعواه أنه جمعه على جميع وجوهه وحروفه التي أنزل" (**الانتصار للقرآن** ٤٠٨/١).

مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن"(١).

وقال: حدثنا إسماعيل بن جعفر عن المبارك بن فضالة عن عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأي تعد سورة الأحزاب؟ قلت: اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية. قال: إن كانت لتعدل سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم. قلت وما آية الرجم؟ قال: «إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» (٢).

ماذا يقول لنا السيوطي رحمه الله بهذه الروايات؟ كيف نفهم: قد ذهب منه قرآن كثير؟ أين ذهب؟ وكذلك: فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن؟ هل يفهم من هذا عجز عثمان ﷺ عن جمع كل المصحف؟

إن الخوض في قضايا علوم القرآن والمتعلقة بالقرآن الكريم، جمعه ونسخه، لا مجال للحكم بالرأي فيها، بل الحسم فيها لا يكون إلا بحديث النبي ﷺ الصحيح، ولما تعذر وجود الحديث اضطر العلماء إلى إطلاق العنان للرأي والروايات المختلفة. وقد رأينا التعبير عن كثير من هذه القضايا عُبر عنها بـ"قد" مع الفعل المضارع والتي تعني التقليل، وكذلك الإكثار من صيغة التمريض "قيل".

---

(١) رواه أبو عبيد في **فضائل القرآن**، ١٤٦/٢، وفي سنده لهيعة ضعيف (تعليق محققي الإتقان).

(٢) رواه أبو عبيد في **فضائل القرآن**، ١٤٦/٢-١٤٧. جاء في تحقيق **الإتقان**: "وفي إسناده المبارك بن فضالة وهو مدلس".

كما يلاحظ عدم تمحيص الروايات ونقدها والتعليق عليها، وكأن العبرة تكمن في إيرادها فقط وليس فيما تدل عليه من معان. وهنا تدعو الضرورة إلى تمحيص الروايات المتعلقة بالقرآن الكريم جمعاً ونزولاً، ولا يكفي أن يكون سندها صحيحاً للحكم عليها، بل يجب النظر إليها في إطار الرؤية القرآنية الكلية.

إن النسخ هو الذي يفتح الباب للقول بتحريف القرآن الكريم والزيادة والنقصان فيه. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الباحث اجتهد اجتهاداً يرجو أن يكون صائباً، ويتمثل في ضبط القول بالنسخ وحصره على نسخ الحكم دون التلاوة، والبحث عن مخرج آخر للروايات العديدة التي تسمي بعض أخبار الآحاد قرآناً منسوخاً.

يقول العلامة عبد الله بن الصديق رحمه الله: «يلزم القائلين بنسخ التلاوة إشكال خطير... معنى نسخ التلاوة عند القائلين به أن الله أسقط الآية المنسوخة من القرآن، وهذا خطير جداً؛ لأن كلام الله قديم، وكيف يعقل أن يغير الله كلامه القديم، بحذف آية منه؟!! وما القول في هذه الآيات المنسوخة؟ هل يقال: كانت من كلام الله والآن ليست منه؟ وكيف يجوز هذا والله تعالى يقول: "لا تبديل لكلمات الله"؟ إشكال لا سبيل إلى حله»(١).

ونفس الاتجاه النقدي سار عليه الشهيد صبحي الصالح رحمه الله حين قال: «والولوع باكتشاف النسخ في آيات الكتاب أوقع القوم في

---

(١) **ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة**، عبد الله بن الصديق الغماري، (جمعية آل البيت للتراث والعلوم الشرعية، فلسطين، ٢٠٠٧) ص ١٢.

أخطاء منهجية كان خليقا بهم أن يتجنبوها لئلا يحملها الجاهلون حملا على كتاب الله: لم يكن يخفى على أحد منهم أن القرآنية لا تثبت إلا بالتواتر، وأن أخبار الآحاد ظنية لا قطعية، وجعلوا النسخ في القرآن -مع ذلك- على ثلاثة أضرب... أما الجراءة العجيبة ففي الضربين الثاني والثالث اللذين نسخت فيهما - بزعمهم - تلاوة آيات معينة إما مع نسخ أحكامها وإما دون نسخ أحكامها... وجميع ما ذكروه منها أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها»(١).

وهذا ما أشار إليها الباقلاني رحمه الله مبكراً حين قال مناقشا هذه الروايات وغيرها في مبحث نفيس، ومهم الاطلاع عليه: "وجملة القول في ذلك أن جميع هذه الروايات أخبار آحاد لا سبيل إلى صحتها والعلم بثبوتها، ولا يخيل لنا أن ننسب إلى أحد من الصحابة ومن دونهم إثبات قرآن زائد على ما في أيدينا، أو نقصانا منه بمثلها إليهم من ذلك آمراً أمراً غير معلوم ولا متيقن"(٢).

وخلاصة القول: إن الحاجة ماسة إلى مراجعة نقدية لعلوم القرآن ونقد محتوياته حتى لا يبقى هذا التراث منفذا للطاعنين وعبث العابثين. وإذا كان الإيمان عاصما من قواصم الزيغ والانحراف والشك فإن هناك من يبتغي معرفة نقية تثبت إيمانه أو تلج به في عالم الإيمان، وليست علوم القرآن بما هي عليه الآن مما يساعد على ذلك... وإن إيجاد منهج

---

(١) **مباحث في علوم القرآن**، صبحي الصالح، (دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٦، ١٩٨٥)، ص ٢٦٥.

(٢) **الانتصار للقرآن**، الباقلاني، ٢/٤٢٩-٤٣٠.

نقدي لعلوم القرآن كفيل ببيان كمال الوحي وقدسيته يعتبر ضرورة ملحة في واقع اختلط فيه الحابل بالنابل، حتى لا يشكك الناس في قرآنهم بما كتبه أسلافهم عن قرآنهم.

٢- مجال الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم

هذا هو المجال الثاني من مجالات علم الانتصار للقرآن. والحديث عن الاستشراق يعني الحديث عن كل فكر غربي ورأي غير إسلامي المنبت، ويندرج هنا التبشير أيضا. إن الغاية من هذا المبحث هو عرض الأطروحات الأساس في الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم. وسيتم الاكتفاء بخمس أطروحات، على سبيل التمثيل فقط، هي كالآتي: أصل القرآن، والقراءات القرآنية، وجمع القرآن، وترتيب القرآن، وما ضاع من القرآن.

أولا: أصل القرآن

خصص المستشرقون حيزا مهما لأصل القرآن، وعلى رأسهم الألماني تيودور نولدكه Theodor Noldeke (١٨٣٦-١٩٣٠) الجزء الأول من كتابه تاريخ القرآن(١) للكلام عن أصل القرآن، وذلك من خلال مناقشة القضيتين الآتيتين: نبوة محمد والوحي؛ وأصل أجزاء القرآن المفردة.

يرى نولدكه أن محمدا ﷺ "اعتبر ما حرك نفسه أمرا موحى به، منزلا من السماء، ولم يختبر اعتقاده إطلاقا، بل اتبع الغريزة التي كانت تدفع به

---

(١) **تاريخ القرآن**، تيودور نولدكه، ترجمة جورج تامر، (بيروت، ط١، ٢٠٠٤) ص١-٢٣٢.

تارة إلى هنا وطورا إلى هناك؛ ذلك أنه اعتبر هذه الغريزة صوت الله الذي أتاه. وهذا ينتج الفهم الحرفي الظاهر للوحي الذي يقوم عليه الإسلام"(١).

ويخلص نولدكه بالقارئ إلى نتيجة مفادها أن سور القرآن الكريم أعدها النبي ﷺ بتفكير واع وبواسطة استخدام قصص من مصادره غريبة مثبتة، وكأنها وحي حقيقي من الله... فما هي هذه المصادر؟

ينطلق نولدكه من نقطة مفادها أن المصدر الرئيس للوحي بحسب ما يؤمن به المسلمون وما يعتقده الفكر الوسيط، وحتى جزء من المعاصر، هو ما تحمله الكتابات اليهودية. بل حتى أقدم السور بها ما يشير إلى مصدرها. من هنا يقرر أن "لا لزوم للتحليل لنكتشف أن أكثر قصص الأنبياء في القرآن، لا بل الكثير من التعاليم والفروض، هي ذات أصل يهودي. أما تأثير الإنجيل فهو دون ذلك بكثير"(٢). ثم يؤيد قراره هذا بشهادة من الواقع مؤداها أن اليهود كانوا موجودين في أماكن عدة بالجزيرة العربية وكانوا يقيمون في مناطق يثرب التي كانت على صلة وثيقة بموطن محمد ﷺ، وكانوا يترددون كثيرا على مكة.

كما يعتبر نولدكه أن أحد أهم مصادر تعاليم النبي محمد ﷺ يتمثل في الاعتقادات التي اعتنقها قومه. ويرد ذلك إلى أن ما من مصلح يمكنه أن يتنصل تماما من المعتقدات التي تربى عليها. ويستدل هنا ببعض الأمور التي كانت سائدة في الجاهلية فأقرها الرسول ﷺ أو عدلها.

---

(١) نفسه ص ٥-٦.

(٢) نفسه ص ٧.

وهكذا، يخلص نولدكه بالقارئ إلى أن الدين الذي قدر له أن يهز العالم "انصهر في وجدان محمد ﷺ من مواد مختلفة. ما أضافه هو إلى ذلك يقل أهمية عما أخذه عن الآخرين"(١).

ثانيا: القراءات القرآنية

في الفصل المعنون بـ"القراءة"(٢) تناول تيودور نولدكه في أكثر من مائة صفحة(٣) موضوع القراءات القرآنية من خلال العناصر الآتية:

- مسائل أساسية (مثل المصادر، العلاقة مع الرسم، توحيد القراءات، نقد الروايات...)
- القراء والقراءات.
- كتب القراءات.

يرى نولدكه أن حقائق كثيرة تؤكد التحول من النقل الشفوي للقرآن، الذي ساد في فجر الإسلام، إلى دراسة النص القرآني المكتوب. ويوضح ذلك بأن النُسخ "التي أرسلها عثمان إلى بعض المدن تأثرت بطريقة النطق في هذه المدن، ودخلت فيها بعض أخطاء النسخ... من الممكن طبعا أن تنشأ في المأثور الشفوي أشكال مزدوجة للنص لا تظهر اختلافاتها بوضوح في الكلمات غير المشكلة..."(٤)، ثم يخلص بالقارئ إلى أن

---

(١) نفسه ص ١٩.

(٢) هذا الفصل يندرج ضمن الجزء الثالث من كتاب تاريخ القرآن، وهو يحمل عنوان "تاريخ القرآن" أيضا.

(٣) نفسه ص ٥٥٥-٦٧٦.

(٤) نفسه ص ٥٥٨-٥٥٩.

كمية أساسية كبيرة من القراءات التي خرجت من رحم النص المكتوب تكونت خلال نصف قرن، أي منذ تاريخ كتابة نسخة عثمان ﵁ إلى فترة الازدهار العلمي عند الحسن البصري.

إن تكوين النص المعتبر - في نظر نولدكه - عرف مرحلتين متداخلتين، هما: الموازنة داخل كل مصر، وبعد ذلك بين الأمصار. ويرى أن "لو استمر هذا التطور من دون تشويش لأمكن الوصول إلى قبول نص، تقل درجة فعل الصدفة فيه عما هي عليه في النص المشهور لحفص بن عاصم المعروف..."(١) ويرجع نولدكه وقف هذا التطور إلى ابن مجاهد صاحب المذهب التقليدي الذي لم يعد يسمح بربط القراءات ذات المنابت المختلفة بعضها ببعض.

أما المستشرق إجناس جولد تسيهير Ignaz Goldziher (1850- 1921) فقد خصص في كتابه مذاهب التفسير الإسلامي ما يقرب من سبعين صفحة للحديث عن القراءات القرآنية(٢)، وذلك في فصل بعنوان "المرحلة الأولى للتفسير"(٣)، مكون من مبحثين.

ولعل أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ لهذا الفصل، وحتى قبل

---

(١) نفسه ص ٥٧٨.

(٢) اهتم كثير من الباحثين بنقد ما عرضه جولد تسيهير في موضوع القراءات، منهم: محمد حسين جبل في كتابه **الرد على المستشرق اليهودي جولد تسيهير في مطاعنه على القراءات القرآنية** (ط ٢، ١٤٢٣-٢٠٠٢).

(٣) **مذاهب التفسير الإسلامي**، جولد تسيهير، ترجمة عبد الحليم النجار، (دار اقرأ، بيروت، ط٥، ١٩٩٢)، ص٣-٧٢.

الخوض في مضامينه، وانطلاقا من العناوين الفرعية التي تحمل مادة "القراءات" أن القراءات القرآنية، في زعم جولد تسيهير، ما هي إلا وجه من وجوه تفسير القرآن الكريم. وقد تابعه في هذا المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير.

يبدأ جولد تسيهير بتقرير أن إقامة النص القرآني نفسه تشتمل على بذور التفسير. وهذا يدفعه إلى القول: "لا يوجد كتاب تشريعي، اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن"(١). فما سبب هذا الاضطراب؟

ينفي جولد تسيهير أن يكون هناك نص موحد للقرآن الكريم، وتتمثل أولى الرغبات في التوحيد في عمل عثمان بن عفان ﷺ ، لكن هذه الرغبة لم يحالفها توفيق كبير.

ويرد صاحب مذاهب التفسير الإسلامي الاختلافات في قراءات القرآن الكريم إلى "خصوصية الخط العربي، الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعا لاختلاف النقاط الموضوعية فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط"(٢). ويورد هنا مجموعة من الأمثلة لتدعيم ما ذهب إليه، وأقتصر منها على قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ ﴾ [الأعراف:

---

(١) نفسه ص ٤.

(٢) نفسه ص ٨.

٤٨]، ويقول إن بعض القراء قرؤوا (تستكثرون) بدلا من (تَسْتَكْبِرُونَ). ويعلق عبد الحليم النجار مترجم الكتاب على هذا النموذج المختار قائلا: "وحسبك هذا دليلا على أن الخط لم يكن هو العمدة في صحة القراءة"(١).

ثم يتوقف جولد تسيهير طويلاً عند ابن مسعود ﷺ ، مبدياً وجهة نظره في قراءاته ومكانته بين القراء، مقارناً بين قراءته وقراءة زيد بن ثابت ﵄ ، ويورد روايات مفادها أن زيداً كان أصغر سنًّا من ابن مسعود بكثير ولم يعش مع النبي ﷺ إلا مدة وجيزة لصغر سنه، ثم يتساءل: "فكيف إذن وضعت قراءته (يقصد ابن مسعود)، التي تلقاها عن المصدر الأصلي مباشرة، وراء قراءة زيد بن ثابت"؟

كما يتوقف جولد تسيهير طويلاً عند الحرية في اختيار القراءات، ويقرر أنه "كان سواء لدى الناس أن يرووا النص على وجه لا يتفق بالكلية مع صورته الأصلية"(٢). ويسوق هنا عدداً من الشواهد لتثبيت رأيه، ويخبر القارئ أن هناك قراءات مخالفة للنص المشهور ذكرت على أنها قراءات الرسول ﷺ. ومما يدعو للعجب إيراده رواية لعبد الله بن أبي سرح، أحد كتاب الوحي المعروفين، افتخر أمام القرشيين بما كان يتمتع به من النفوذ عند الرسول ﷺ فقال إنه كان يحول النبي كما يريد، يقول عبد الله بن أبي سرح: "كان يملي علي مثلاً (عزيز حكيم)، فأقول: "هل

---

(١) نفسه ص ٩ (الهامش).

(٢) نفسه ص ٤٨.

أكتب (عليم حكيم)"؟ فيقول النبي ﷺ: "نعم، كل صواب"(١). ويحيل هنا إلى أسد الغابة في معرفة الصحابة. وهذا يؤكد ضرورة نقد التراث.

إن القول بحرية القراءة وما نتج عنه من إمكانية قراءة القرآن بالمعنى لم يتوقف عند جولد تسهير، بل نجد الفرنسي ريجيس بلاشير يتلقفها ويؤيدها وينسب القول بها إلى بعض المؤمنين الذين لم ينغلقوا على نص القرآن بحرفه، بل رأوا أن المهم إنما هو روحه(٢).

ثالثا: جمع القرآن:

عندما يذكر جمع القرآن الكريم فإن أول اسم استشراقي يتبادر إلى ذهن الباحثين هو تيودور نولدكه وعمله الضخم تاريخ القرآن. ففي هذا الكتاب يخصص الجزء الثاني لبحث قضية جمع القرآن من خلال سبع نقاط جاءت فيما يقارب مائتي صفحة(٣).

---

(١) نفسه ص ٥١.

(٢) *Introduction au Coran*, Régis Blachère, (Maisonneuve et Larousse, Paris 1977), p.69.

(٣) **تاريخ القرآن**، نولدكه، ص ٢٣٥-٤٣٣. وهذه النقاط السبع هي: ١- حفظ تدوين الوحي في أيام محمد ﷺ على أساس تلويحات قرآنية ووضع السور النصي. ٢- جامعو القرآن غير الأصيلين، أو حفاظ الوحي. ٣- المجموعات والنسخ المكتوبة. ٤- جمع زيد بن ثابت الأول. ٥- النسخ الأخرى الشائعة قبل نسخة عثمان، وهنا تعرض نولدكه لمصحف عبد الله بن مسعود الذي يثير جدلا بين المستشرقين وحتى بين المسلمين. ٦- نشوء نسخة القرآن الرسمية في عهد الخليفة عثمان. ٧- القرآن المحمدي في علاقته بالكتب المقدسة المسيحية-
==

ينطلق نولدكه في كلامه عن جمع القرآن الكريم بنقطة يعتبرها بدهية، وهي "أن القرآن لم يجمع كاملا في أيام النبي ﷺ"(١)، ثم يدرس ناقدا روايات جمع القرآن الكريم المتوفرة لديه، وليتأمل القارئ كيف ينطلق نولدكه من نقطة لا يمكن الاختلاف حولها ثم يقرر بعد ذلك ما يريد ويخلص إلى هدفه.

بعد ذلك، ينتقل إلى عرض نسخ مصحف كل من عبد الله بن أبي وعبد الله بن مسعود ﵄ بعد أن يبين مكانتهما في الإسلام. ففي مجموعة السور التي تضمنها مصحف ابن أبي ﵁ هناك سورتان لم تتضمنهما النسخة الرسمية هما سورتا الخلع والحفد. وبعد أن يقر بعدم إمكانية نسبة هاتين السورتين إلى الوحي لكونهما دعاء وعدم اشتمالهما على لفظ "قل" قياسا على سورتي الفلق والناس، يخلص بنا إلى أن هذه الحجة نفسها تدعو إلى الشك في أن تكون الفاتحة جزءا من الوحي.

ثم يناقش مصحف ابن مسعود ﵁ الذي يتضمن ١١١ سورة، حسب ما هو متوفر لديه من روايات، أي من غير سور الفاتحة والفلق والناس. ويعلق على موقف ابن مسعود ﵁ قائلا: "لم يكن موقف ابن مسعود الرافض للسور الثلاث اعتباطيا، فإنها تختلف، شكلا ومضمونا، عن سائر السور، الأمر الذي يدعو إلى الشك في صحتها. في حين أن الفاتحة

==

اليهودية. ثم نجد بعد هذه النقاط ملحقا بالمصادر المحمدية والأبحاث المسيحية الحديثة حول أصل الآيات والسور ونشوء كتاب القرآن.

(١) نفسه ص ٢٥٢-٢٥٣.

تظهر قربا كبيرا من الصلوات اليهودية والمسيحية، فإن لسورتي القسم خلفية وثنية واضحة، حتى ولو كانت تبدآن بعبارة "قل"(١).

يتوقف نولدكه طويلا عند النقطة المثيرة للجدل، ألا وهي تقديم زيد بن ثابت في جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنهما ، ويقرر أنه لا يوجد أجدر من زيد للقيام بعمل النسخ هذا، لكونه هو كاتب هذا المخطوط الأساسي ومحرره (أي مخطوط مصحف حفصة الذي أصبح بيد عثمان رضي الله عنه). وفي هذا رد غير مباشر على جولد تسيهير في رأيه السابق.

والخلاصة التي يصل إليها نولدكه هي أن "عثمان لم يفعل من أجل الحصول على نص موحد للقرآن إلا أنه أوعز نسخ أهم المخطوطات المتوفرة في المدينة. ومن ثم لم يعد من الضروري الحديث عن جمعه، بل عن إصداره إياه. هذا الإصدار لم يكن كاملا، كما اعترف المسلمون أنفسهم بذلك، منذ زمن طويل"(٢). ويسوق هنا مجموعة من الروايات الواردة في الموضوع.

رابعا: ترتيب القرآن

ومما له علاقة بجمع القرآن قضية مهمة أسالت الكثير من المداد أيضا وهي قضية ترتيب القرآن. وقد تناولها كثير من المستشرقين، منهم تيودور نولدكه(٣) وإدوارد سيل(٤) وبلاشير في النسخة الأولى لترجمته

---

(١) نفسه ص ٢٧٤.

(٢) نفسه ص ٢٩١.

(٣) نفسه ص ٦١ وما بعدها.

(٤) *The Historical Development of the Quran,* Edward Sell, (London, 1898) p 2.

لمعاني القرآن الكريم. وقد تلقفها بعدهم كثير من المسلمين كان آخرهم محمد عابد الجابري.

ينتقد نولدكه ترتيب سور القرآن الكريم في مصحف عثمان ﷺ بأنه ترتيب غير واضح القصد. ولا يمكن أن يبرر هذا الترتيب، في نظره، إلا بمعيار الطول؛ فباستثناء الفاتحة، فإن حجم السورة هو المتحكم. ويورد إحصائيات يدعم بها رأيه.

ويقترح نولدكه ترتيبا للقرآن الكريم يشتمل على ثلاث فترات، وكل فترة بدورها مرتبة سورها:

١- سور الفترة الأولى(١): تبدأ بنزول القرآن الكريم، أي من السنة الأولى من البعثة حتى السنة الخامسة.

٢- سور الفترة الثانية(٢): وتشمل سور السنتين الخامسة والسادسة من البعثة.

٣- سور الفترة الثالثة(٣): وتشمل سور القرآن الكريم التي نزلت من السابعة من البعثة إلى الهجرة.

وهذه كلها تشمل السور المكية.

٤- سور الفترة المدنية كلها(٤).

---

(١) **تاريخ القرآن**، نولدكه، ص ٦٨.

(٢) نفسه ص ١٠٥.

(٣) نفسه ص ١٢٨.

(٤) نفسه ص ١٤٨.

وقريب من هذا التقسيم تقسيم بلاشير الذي يرى أننا نقرأ القرآن اليوم عكس ما نزل به من ترتيب، ويذكّر أن "السور تنقسم إلى أربع مجموعات توافق فترات رسالة محمد الأربع المتلاحقة"(١). هذه الفترات الأربع ثلاث منها تنتمي إلى المرحلة المكية، بينما الرابعة تخص السور المدنية. لكن بلاشير عدل عن ترتيب القرآن وفق نزوله في الطبعة الثانية لترجمة القرآن. وهذا دليل على غياب الفائدة والجدوى منه، كما أن الوثائق لا تسعف، وأي ترتيب مزعوم يبقى مجرد ظن.

خامسا: ما ضاع من القرآن

يجد الباحث في كتب المستشرقين كلاما عن ضياع جزء مهم من القرآن، وكذلك عن نسخ بعضه. وهذا مما تحفل به أيضا كتب الحداثيين من المسلمين. وبالعودة إلى شيخ المستشرقين تيودور نولدكه يجد الباحث في تاريخ القرآن عنوانا بارزا في الجزء الأول بعنوان "ما لا يتضمنه القرآن مما أوحي إلى محمد ﷺ". ويتناول أربع نقاط كالآتي:

أولا: "يهمنا بالدرجة الأولى تلك التي ما زال نصها محفوظا والتي يصفها الحديث صراحة بأنها أجزاء أصيلة من القرآن"(٢). ومما يذكره من تلك النصوص آية الرجم. وهنا يورد نولدكه ما اعتبره علماء القرآن منسوخا.

---

(١) **دراسة سور القرآن وآيه شكلا ومحتوى**، ريجيس بلاشير، تعريب محمد المختار العبيدي، (حوليات الجامعة التونسية، العددان ٢١-٢٢، ١٩٨٢-١٩٨٣).

(٢) **تاريخ القرآن**، نولدكه، ص ٢١٠.

ثانيا: "نملك بعض المعلومات عن مقاطع قرآنية ضاعت من دون أن يبقى لها أثر"(١). ويسوق هنا أمثلة منها سورة الأحزاب التي يروى أن عدد آياتها كان يبلغ المائتين آية بينما هي الآن لا تتجاوز ستا وسبعين آية.

ثالثا: "نذكر أحاديث محمد ﷺ التي تعتبر بدورها وحيا إلهيا، لكنها لا تعلن صراحة أجزاء من القرآن، ثمة مخطوطات تجمع فيها هذه الأقوال"(٢). من هذه الأحاديث قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: "إِذَا تَقَربَ الْعَبْدُ إِلَي شِبْرًا تَقربْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَربَ مِنّي ذِرَاعًا تَقَربْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" كما عند البخاري رحمه الله. ويبدو أن نولدكه يتحدث هنا عن الأحاديث القدسية.

رابعا: "لابد من ذكر أخيرا العدد الضخم من الروايات التي أطلق فيها محمد ﷺ في مختلف المناسبات تحذيرات أو أوامر، أو كشفا عن الحاضرات أو المقبلات بوحي أتاه"(٣). ويبدو أن نولدكه هنا بصدد مناقشة ما هو إخبار من عند النبي ﷺ بالمغيبات سواء حاضراً أو مستقبلاً.

ثم يختم هذا المبحث معلقاً ومستنتجاً فيقول: "لعل النبي ﷺ نفسه اعتراه الشك أحياناً، وهو على هذه الأرضية المضطربة. ولم يكن اللاحقون الذين تولوا مهمة جمع تركته أقل منه عرضة للخطأ. لهذا السبب تمكنت أقوال عادية أن تنال بسهولة صفة "الأحاديث القدسية"، وحتى أن تتسرب كوحي من الدرجة الأولى إلى القرآن. كذلك تمكنت

---

(١) نفسه ص ٢٢٨.

(٢) نفسه ص ٢٢٩.

(٣) نفسه ص ٢٣١.

بالمقابل آيات حقيقية من القرآن، لم تضم لسبب إلى المصحف، أن تدخل الحديث"(١).

إن هذه العينة من القضايا القرآنية التي تناولها المستشرقون تبين مدى الحاجة إلى قيام علم يتولى دحض أطروحاتهم هاته ونسفها بمنهج علمي دقيق. وهذا ما يرجى لعلم الانتصار أن يقوم به.

٣- مجال الدراسات الفكرية المعاصرة

هذا هو المجال الثالث. والمقصود بالدراسات الفكرية المعاصرة التي أنجزها مفكرون ينتمون إلى الإسلام. وهؤلاء إنما يتصدون للقرآن الكريم بدافع الحداثة والتحديث. ورغم أنهم يتناولون أغلب القضايا التي تناولها المستشرقون فإنه لابد أن نقول هنا عنهم كلمة، وذلك لبيان موقفهم من دراسات القرآن الكريم، من خلال عرض نقدهم المناهج المتداولة واقتراحهم مناهج يرونها جديرة بالاعتماد لدراسة القرآن الكريم وعلومه دراسة في مستوى تطلعات الحداثة. وسنتوقف هنا عند ثلاثة نماذج: محمد أركون، وعبد المجيد الشرفي، ومحمد عابد الجابري.

أولا: محمد أركون والمنهج الألسني النقدي

إن الدراسات التي اهتمت بـ"الظاهرة القرآنية"(٢) لا تشفي غليل أركون، ولا طموحه "العلمي"، فهي قاصرة عن بلوغ المستوى العلمي

---

(١) نفسه ص ٢٣٢.

(٢) نادرا ما يستعمل أركون لفظ القرآن، بل يستعمل الظاهرة القرآنية وذلك حتى يمكن أن يكون قابلاً لأن تطبق عليه المناهج الحديثة التي تطبق على النصوص الأدبية.

النقدي المطلوب. من هنا، فهو يرفض القراءة الإيمانية، أو "اللاهوتية" حسب تعبيره. والمقصود بها كل التراث التفسيري الذي خلفه المسلمون، وكل ما دون عن القرآن الكريم، قديما وحديثا. وبعبارة أخرى، هو كل تعامل مع القرآن الكريم يرسخ الإيمان ويثبته في نفوس المؤمنين.

لا يخفي أركون قلقه من قلة الأبحاث السيميائبة على القرآن الكريم، باستثناء محاولة نصر حامد أبي زيد التي لا تشفي غليله، رغم كونه أول باحث مسلم يكتب بالعربية بادر إلى تطبيق الألسنيات الحديثة على النص القرآني وانتهك محرمات كثيرة بهذا الصدد. ورغم ما أحدثته كتاباته من ضجة فإن أركون يراها كتابات عادية تدل على مدى اتساع اللا مفكر والمستحيل التفكير فيه(١). ويرى أن الفكر الديني اليوم بحاجة إلى باحثين مستقلين بعد أن كان طيلة قرون عديدة إما حكرا على سدنته وخدامه المتحمسين، وإما وسيلة للمجادلين الذين يستهدفون غايات أخرى. إن التحليل السيميائي في نظر أركون يفرض على الدارس ممارسة تمرين من التقشف والنقاء العقلي والفكري لا بد منه.

ويرى أركون أن على من يقوم بهذا التحليل السيميائي مهمتين:

- **الأولى**: أن يتزود بتكوين علمي ويحيط بالأرضية المفهومية الخاصة باللسانيات والسيميائيات الحديثة مع ما يصاحبها من أطر التفكير والنقد الإبستمولوجي.

---

(١) يحيلنا أركون هنا إلى كتاب نصر حامد أبو زيد، **مفهوم النص.. دراسة في علوم القرآن**، (المركز الثقافي العربي، البيضاء، ١٩٩٠).

- "**الثانية**: أن يتدرب على التمييز بين الاحتجاج والإدراك والتأويل والتفسير الذي يتم في الإطار المعرفي الدوغمائي وبين التحليل والتفكيك للخطاب الديني. فهذان شيئان مختلفان"(١). وهذه دعوة من أركون للقطيعة مع القراءة التيولوجية الإيمانية التي سادت في التراث التفسيري بمختلف أنواعها.

إن منهج أركون التفكيكي هذا لا يقدم أي فائدة علمية، لا للمؤمنين بالقرآن الكريم وبالإسلام، ولا إلى غيرهم، بل إنه يهدف إلى تقويض كل ما له صلة بالوحي والغيب والإيمان، وبغير دليل. إنه يزحزح فقط من أجل التجاوز (déplacer pour dépasser).

إن المنطلق الرئيس للسيميائيات عند كريماس(٢) كان هو الحكايات الشعبية. مما يجعل تطبيقها على النص القرآني فيه الكثير من المغامرة. أضف إلى ذلك أن ما من نظرية ظهرت إلا وتحمل في طياتها نزعات الإيديولوجية التي أبدعتها قد لا تتفق والإيديولوجيات والهويات الأخرى، وتطبيقها لا ينفصل عنها.

---

(١) **القرآن.. من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني**، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠١)، ص ٥.

(٢) يعتبر كتاب **الدلالة البنيوية** لكريماس اللبنة الأساس لما يعرف بمدرسة باريس السيميائية الشهيرة، وهي المدرسة التي يتبناها محمد أركون. ينظر:

Sémantique Structurale, Algirdas Julien Greimas, (Larousse, Paris, 1966).

٢- عبد المجيد الشرفي والمنهج المقارن في قراءة الإنتاج الديني

إن الباحث التونسي عبد المجيد الشرفي مهتم بموضوع تحديث الفكر الإسلامي بمجالاته المتنوعة. لذا نجده يحدثنا عن تحديث مجالات "علم الكلام"(١)، و"التفسير القرآني"(٢)، و"الحديث النبوي"(٣)، و"الفقه"(٤)، و"أصول الفقه"(٥)، و"علوم القرآن"(٦). ويمكن القول إن دعوته إلى تجديد النظر في الدراسات القرآنية تنبع من نظرته الشاملة لتحديث الفكر الإسلامي.

وينبه إلى خصوصية الإنتاج الديني مقارنة مع الإنتاج الأدبي؛ ذلك أن الأول يدعو إلى قيم أخلاقية ويحمل في طياته قيما وجودية تضفي على الحياة والموت والمصير معنى. وهكذا، فإن العديد من المجتمعات مهيكلة على أساس ما اصطلح الشرفي على تسميته بالإنتاج الديني. وهذا الكتاب سواء كان توراة أو إنجيلاً أو قرآناً فهو قابل للتعظيم والتقديس من جهة، وقابل أيضا "لأشد القراءات اختلافا عبر الزمان والمكان

---

(١) **الإسلام والحداثة**، عبد المجيد الشرفي، (دار المدار الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩)، ص ٤٣.

(٢) نفسه ص ٦٥.

(٣) نفسه ص ٩١.

(٤) نفسه ص ١٠٧.

(٥) نفسه ص ١٣٧.

(٦) **لبنات**، عبد المجيد الشرفي، (دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٤)، ص ٩٩-١٢٩، و**الإسلام بين الرسالة والتاريخ**، الشرفي، (دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠١)، ص ٣٠-٤٦.

وحسب مستويات الثقافة واهتمامات القراء التاريخية أو الفنية أو المذهبية"(١). وهذا يعني أن الوظيفة الاجتماعية لهذه الكتب المقدسة لم تقتصر على الفترة التي ظهرت فيها فقط، وإنما سارية على المجتمعات المتعاقبة، وذلك عن طريق ثلاثة أنماط رئيسة من القراءة، هي:

أولا: القراءة التكرارية

وهي أكثر الأنماط شيوعاً، ويمثل لها الشرفي بالقراءة التي يؤديها المصلي في صلاته بصفة عفوية، أو تؤدى في المناسبات الاجتماعية. وهذه القراءة "في الغالب قراءة تكرارية تكتفي بإعادة ما في النص دون فهم في كثير من الأحيان. وهي، في هذا الاستظهار للكتاب عن طريق الذاكرة، تدعي لنفسها ضمنيا القرب من معنى النص الوحيد والانفراد به، لا سيما إن لم تكن عملية آلية وارتقت إلى مستوى التدبر"(٢).

يقترح الشرفي أن تنعت هذه القراءة بالقراءة السلبية، لأنها –في نظره- تذكي شعوراً ما في نفس القارئ ولا تحرك من ملكاته العقلية سوى اليسير، يستوي فيها الجاهل والعالم والأمي والمتعلم ولا تتطلب مهارات خاصة أو مميزة للقيام بها، بل يكفي في ذلك أن يكون القارئ قادرا على فك الرموز وقراءة الحروف.

وإضافة إلى كون هذه القراءة سلبية، فإن الشرفي يقترح أيضاً أن تسمى قراءة تقريبية، والسبب في ذلك هو أن ثلاثة أرباع المسلمين من

---

(١) **لبنات**، ص ١٠٢.

(٢) نفسه ص ١٠٤.

غير العرب، وهم حين يقرؤون القرآن فبهذا النوع من القراءة، بل حتى العرب أيضا بسبب الأمية المنتشرة، خاصة بين النساء. من هنا لا يقدر كثيرون على القيام بقراءة غير هذه القراءة التكرارية. ويضيف الشرفي إلى كل هذا التحول الذي طرأ على اللغة العربية، إذ هناك فرق بين لغة القرآن واللغة العربية المتداولة حديثا. وهذا يجعل غير المتضلعين في اللغة عاجزين عن النفاذ إلى معاني النص بصفة دقيقة.

ومن حق الباحث هنا أن يسأل الشرفي: لماذا يقوم المسلم بهذه القراءة التكرارية؟

إن تجاهل مثل هذا السؤال يؤكد أن الشرفي وغيره يجعلون من القرآن الكريم نصا كباقي النصوص لا يقرؤه إلا من يريد دراسته أو نقده... أما قراءة القرآن الكريم، أو تكراره، طلبا للأجر وامتثالا لأوامر الله تعالى وتوجيهات النبي ﷺ فلا اعتبار لها عنده. إن القرآن الكريم حسب هذا المنظور لن يكون إلا نصا معرفيا، لا علاقة له بالإيمان والاعتقاد والعمل بمقتضاهما.

ثانيا: القراءة التفسيرية

تشكل هذه القراءة النمط الرئيس، وتعني "قراءة فنية تبحث بالاعتماد على اختصاصات عديدة عن المعنى الأصلي للنص لغاية تقعيدية معيارية"(١). ويبين الشرفي أن هذا النوع من القراءة مورس في مختلف

---

(١) نفسه ص ١٠٥.

الكتب الدينية، حيث كان المفسرون يوفرون كل ما يمكن أن ينير لهم سبل التعرف على مضامين الكتاب، ويورد هنا:

- التاريخ والأخبار، وذلك من أجل معرفة الظروف الحافة بظهور الكتاب ومعرفة لغته وكيفية تدوينه.
- اللغة وخصائص التعبير والأسلوب، وذلك من أجل الوصول إلى المعنى الأول.

وهنا يحبذ الشرفي التمييز بين القراءة التفسيرية في القديم حين كانت من اختصاص المؤمنين، والقراءة التفسيرية الحديثة التي "ليست لها بالضرورة غاية معيارية وهي بالتالي ملك مشاع بين المؤهلين فنيا للقيام بها مهما كانت عقيدتهم"(١). لكنه يستدرك أن هذا التمييز لا يعني القطيعة المطردة بين التفسيرين، وكأنه هنا يستحضر استنكار القارئ، فيردف موضحا أن اختلاف النتائج راجع فقط إلى تبلور مناهج النقد وتوفر معارف جديدة. ويستشهد هنا بمثال الترتيب الزمني لسور القرآن الكريم عند نولدكه وشفالي وبلاشير الذي لا يبتعد جوهريا عن الترتيب الذي توصل إليه المفسرون المسلمون القدامى اعتمادا على أسباب النزول.

إن مهمة المفسرين الموضوعيين، كما يوضح الشرفي، هي العمل على إثبات استمرارية القراءة وطمس الصراعات التأويلية بالحكم عليها بمعيار الخطأ والصواب الذي يستند إلى تصنيف ثنائي: الأرثوذكسية والهرطقات، أو الفرقة الناجية والفرق الضالة. لكن الدارس المقارن لا

---

(١) نفسه ص ١٠٦.

يرضيه التفسير على هذا النحو؛ لأن منهجه يفرض عليه عدم المفاضلة بين التأويلات التي كتب لها النجاح تاريخيا والتأويلات التي وقع القضاء عليها بقوة السيف والسلطان لا بقوة الحجة والدليل. إن الدارس المقارن لا يحكم لصالح أهل السنة أو الشيعة أو الخوارج أو المعتزلة بالنظر إلى موقفه من هذه الفرق، وإنما بما يتوفر لديه من حجج وأدلة لهذا الفريق أو ذاك.

ثالثا: القراءة التأويلية

يجمل الشرفي خصائص هذه القراءة التأويلية في "البحث عن معان متجددة للنص ملائمة لظروف الحياة المتجددة هي كذلك، على أساس أن الكتاب عند ظهوره قد اندرج ضمن استمرارية ثقافية"(١). ويوضح أن الألفاظ يمكن أن تكتسب أبعادا جديدة، كما يمكن للقارئ بهذه القراءة أن يتعلق بروح النص ومقاصده لا أن يتقيد بحرفيته.

وهنا يوضح أن النص ليس حيا بالنسبة إلى القارئ ما لم يكن له معنى يستجيب لحاجته إلى أجوبة عن إشكالات عصره وظروفه وثقافته. وهذا ما عُرف في الفكر الغربي بالهيرمينوطيقا الفلسفية التي استقرت على يد هانس جورج جادمير(٢). لكن الشرفي لا يبرئ هذه القراءة في أن

---

(١) نفسه ص ١٠٩.

(٢) يرى جادمير أن أساس الهيرمينوطيقا هو التوتر القائم بين الحاضر والماضي. وعليه فإن الفهم عنده لا بد أن يجيب عما يقوله النص للحالة التي نعيشها، ويرفض أن يكون فهم النص يتم عبر الانسجام الروحي والنفسي مع المؤلف، أو
==

تنقلب إلى إيديولوجيا وأن تكون النصوص تعلَّة وقناعاً للدفاع عن قيم دنيوية صرفة.

بعد عرض هذه الأنماط من القراءة، ما هي النتائج التي يخلص إليها عبد المجيد الشرفي؟

- "إن للقراءة حدودا تتمثل في سلطة النص ذاته الذي يقاوم ما لا يتلاءم مع طبيعته، وتتمثل في ما تقوم به المجموعة الدينية من تعديل وفق أوضاعها الخاصة بحيث تغلب قراءة على أخرى وتهمش بعض التفسيرات والتأويلات حتى تصبح شاذة وتدخل طي النسيان"(١).
- "إن هذه القراءات الثلاث تمثل وظائف اجتماعية للنص، وإنها تتداخل إلى حد أن كل محاولة نقدية لتفكيكها تبدو للمجتمع وكأنها ترمي إلى كسر شيء ما فيعتبرها نوعا من الكفر؛ لأنه يخلط بين النص والقراءة؛ ولأن ما يخشاه هو أن يكون النص هو المعني بهذا التفكيك لا قراءاته فحسب"(٢).
- "إن الدراسة المقارنة للإنتاج الديني تبرز بعض الظواهر القارة في آثار

==

إعادة معايشة العملية الذهنية للمؤلف. وهذا عين ما ترنو إليه التاريخية في المنظور الحداثي. (ينظر: **الحقيقة والمنهج..الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية،** هانس جورج جادمير، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، مراجعة جورج كتورة، (دار أويا، طرابلس، ط١، ٢٠٠٧)، ص ٣٨١).

(١) **لبنات** ص ١٠٩.

(٢) نفسه ص ١١٠-١١١.

قراءة النصوص المقدسة: منها توظيفها لإضفاء المشروعية على المؤسسات البشرية (الصلات الجنسية داخل الأسرة، نظام الحكم ...)، وإن القراءة يمكن أن تؤدي إلى الاستلاب كما يمكن أن تكون عاملا مضادا للاستلاب، وإن القراءة الكليانية التي تدعي أنها وحدها الصحيحة وتحدد المعنى في مستوى إيديولوجي وسياسي ظرفي تواكب في الأغلب فترات التأزم الاجتماعي ويؤدي طغيانها إلى تحجر الجسم الاجتماعي، بينما يؤدي في العادة إلى تحرر المجتمع الديني من التكرار الذي يعمق التفاوت التاريخي وسلبياته. وأفضل الحالات هي التي يكون فيها مجال لتفاعل القراءتين وللنقد المتبادل بينهما"(١).

٣- محمد عابد الجابري ومعاصرة القرآن

يعترف الجابري بأن الأقدمين طرحوا جميع الأسئلة المتعلقة بالموضوع وناقشوها وقدموا إجابات عنها في تلك المؤلفات الجامعة "حتى ليخيل إلى المرء اليوم أنه لم يعد هناك مجال للمزيد"(٢). أما المستشرقون الذين يعتمدون منهج المقارنة فهم في نظره يطرحون أسئلة يرجعها إلى ثقافتهم الخاصة، وهي أسئلة "قد تثير قضايا جديدة لم تكن من مجال "المفَكر فيه" في الثقافة العربية الإسلامية. ومع أن طرح مثل هذه الأسئلة المتولدة في ثقافة بعينها على ساحة ثقافة أخرى لم يكن فيها

---

(١) نفسه ص ١١١.

(٢) **مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن**، محمد عابد الجابري، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦)، ص ٢٠.

ما يدفع إلى طرحها، قد يغني التفكير داخل هذه الأخيرة، فإنه ينطوي على نوع من ممارسة السلطة عليها، سلطة السائل على المسؤول، مهما كان وضع أحدهما بالنسبة إلى الآخر. ويوضح ذلك بأن "السائل "فاعل"، قد لا تخلو أسئلته من إزعاج وإحراج حتى عندما يكون وراءها براءة وحسن نية، كما هو الشأن في أسئلة الأطفال"(١).

ورغم إقرار الجابري بالفرق بين وضع الكتاب المقدس وتاريخ تكوينه، وبين وضع القرآن ومساره التكويني، فإن ذلك لم يغنه عن طرح الأسئلة المتعلقة بمسار الكون والتكوين(٢). ويستند هنا إلى اهتمام علماء المسلمين على مر العصور بهذه الأسئلة، خاصة أولئك الذين كتبوا في علوم القرآن.

من هنا، يرى الجابري أن إعادة طرح أسئلة الكون والتكوين، بل تجديد طرحها، هو الكفيل بأن يجعل القرآن معاصرا لنفسه ومعاصرا لنا في الوقت نفسه. لكن، كيف ذلك؟

يبدأ الجابري بتذكير قارئه بالمنهج الذي حدده لنفسه منذ أزيد من ربع قرن(٣)، ويتلخص في جعل المقروء معاصرا لنفسه ومعاصرا لنا في

---

(١) نفسه ص ٢١.

(٢) يوضح الجابري هنا أن أسئلة الكون والتكوين هي غير أسئلة الأصل ؛ لأن الأصل هنا وحي، والوحي ينتمي إلى منطقة التسليم والإيمان وليس إلى ميدان البحث والبرهان (ينظر **المدخل إلى القرآن الكريم**، هامش ص ٢٢).

(٣) ويحيل هنا إلى مقدمة كتابه **نحن والتراث** حيث وضح منهجه في التعامل مع الموروث الثقافي.

نفس الوقت. وإذا كان الأمر هنا يتعلق بالقرآن الكريم فإن طريقة تطبيق منهجه هذا تتلخص، في نظره، في المبدأ الذي نادى به كثير من علماء الإسلام، مفسرين وغيرهم، وهو أن "القرآن يشرح بعضه بعضا"(١).

ولتطبيق هذا المبدأ يوضح الجابري أنه ينبغي التمييز منهجيًّا بين أمرين:

- "النص القرآني كما هو مجموع في المصحف من جهة؛
- والقرآن كما نزل مفرقا، أي حسب ترتيب النزول من جهة أخرى"(٢).

ويضيف مبيناً طريقة عمل المنهج: أن ما كان ينتمي إلى النسبي والتاريخي رجع به إلى ترتيب النزول، وإن كان إلى المطلق واللا زمني طرحه على مستوى القرآن ككل بوصفه يشرح بعضه بعضاً ويكون الحكم فيه "قصد الشارع" وليس الزمن والتاريخ. ويستدرك أن هذا لا يمنع من اعتماد المستويين معا حينما تدعو الضرورة إلى ذلك.

إن المتتبع لهذا الكلام ليصدم بفكرة واحدة يحوم حولها الفكر الحداثي، وهي قضية الإيمان. وهذه القضية تتفرع عنها مجموعة من القضايا هي من الخطورة بمكان. من هنا تنتصب أمام القارئ أسئلة لا متناهية: ما هو القرآن؟ ولماذا أنزل؟ ما هو الإيمان؟ ما هو الإسلام؟ لماذا الإيمان؟

فإذا كان أركون والشرفي وغيرهما يرون في القراءة اللاهوتية مجرد ترسيخ للإيمان، والإيمان كما نعلم "أن تؤمن بالله وبملائكته وكتبه ورسله

---

(١) **مدخل إلى التعريف بالقرآن الكريم**، الجابري، ص ٢٨.

(٢) نفسه ص ٢٨.

واليوم الآخر والقدر خيره وشره"، فإن هناك سؤالا يطرح نفسه وبإلحاح: ما الهدف من دراسة القرآن الكريم؟ وهذا ما لا يعثر له القارئ على جواب.

إن هذه المناهج الحداثية في دراسة القرآن الكريم ليست إلا نماذج من الدراسات الفكرية المعاصرة لمسلمين. ولا يهمنا هنا نوايا أصحابها، بل ما تتركه من آثار في ساحة الفكر الإسلامي. وهنا تبدو الضرورة ملحة لمناقشة هذه المناهج ونقدها وبيان عوارها إثباتاً لربانية القرآن الكريم وحفاظاً على عقول أبناء المسلمين. ذاك الحفظ الذي يعتبر مقصداً كبيراً من مقاصد الشريعة الإسلامية. وهذا ما يُرجى أن يقوم له علم الانتصار للقرآن.

المبحث الثالث

منهج علم الانتصار وأدواته

نبحث في هذا المبحث المنهج الذي يقوم عليه علم الانتصار للقرآن حتى يؤدي وظيفته المرادة، كما نبحث أيضا عن الأدوات التي يمكنها تحقيق مقاصده.

١- منهج علم الانتصار

يُقصد بالمنهج "المنطق الذي تحلل به مفاهيم العلم وطرائقه تحليلاً يبرز صورها"(١). ويقوم علم الانتصار أساساً على منهج النقد؛ لأنه يحمل على عاتقه دحض الأطروحات المخالفات ونقدها. وقد كنا بصدد الإشارة إلى أن الانتصار للقرآن يهتم أساساً بالشبهات المثارة حول القرآن الكريم. وهذا يتطلب نقدها. لكن هذا النقد لا بد له من خطوات يمكن اعتبارها أساسية، وهي: وصف القضية، وتحليلها، وبعد ذلك نقدها. فماذا يعني الوصف وكيف يتم؟ وماذا يعني التحليل وكيف يكون؟ وما وظيفتهما في النقد؟

أولا: الوصف

يقصد بالوصف "المرحلة الأولى في قيام أي علم، وفيها يقوم العقل البشري بوصف مختلف ظواهر العلم وموضوعاته بهدف تصنيفها في

---

(١) **الدليل إلى منهج البحث العلمي**، أحمد سيد (ط ١، ١٤٠٥-١٩٨٥)، ص ١١.

مجموعات متشابهة توطئة لوضعها موضع التجريب في المرحلة اللاحقة من تطور العلم.."(١)، كما أنه "استقراء المواد العلمية التي تخدم إشكالا ما، أو قضية ما، وعرضها عرضاً مرتباً ترتيباً منهجياً. وقد يكون الوصف تعبيريا فيسمى العرض، أو يكون رمزياً - أي باعتماد الصفحات - فيسمى التكشيف"(٢).

فما العرض؟ وما التكشيف؟

يعني العرض جمع مادة علمية للإنتاج الفكري المكتوب، سواء كان مخطوطاً أو مطبوعاً، وسواء كان قديماً أو حديثاً. وهو عمل عرفه علماء الإسلام منذ القديم، تحت اسم "الفهرست" أو "الثّبت" أو "البرنامج"، وهو عمل ضروريّ لكلّ باحث. وهو خطوة أساسية لدراسة ظاهرة علمية ما. ويمكن أن يتم هذا العرض بسرد المؤلفات على ترتيب منهجي معين، مقتصرة على معلومات الكتاب الظاهرة، أو زيادة على ذلك، بذكر المضمون العام للكتاب بشيء من التفصيل، أو في مرحلة ثالثة تناول قضية ما تكون موضوع الدراسة. وفي النهاية يختم هذا العمل بتقويم إجمالي للكتاب.

---

(١) **المراحل الارتقائية لمنهجية الفكر العربي الإسلامي.. المنهج في النسق الفقهي الإسلامي**، حسن عبد الحميد عبد الرحمن، (حوليات كلية الآداب بالكويت، الحولية: ٨، الرسالة،٤٤)، ص٢١-٢٢.

(٢) **أبجديات البحث في العلوم الشرعية.. محاولة في التأصيل المنهجي**، فريد الأنصاري، (منشورات الفرقان، سلسلة الحوار ٢٧، البيضاء، ط ١، ١٤١٧-١٩٩٧)، ص ٦٦.

أما التكشيف فيعني وضع دليلٍ يُتوصّل بواسطته إلى مختلف المعلومات المذكورة في كتاب أو أكثر، فيُسمى كشافا أو فهرسا. ومن بين أنواع التكشيف المعروفة والمتداولة بعض المعاجم التي تهتم بفن من الفنون ومصطلحاته، كمعجم مصطلحات القراءات القرآنية أو معجم مصطلحات أصول الفقه وغير ذلك.

ويتم الوصف في علم الانتصار للقرآن من خلال اتباع الخطوات التالية:

١- تحديد مجال القضية، فمجالات الدراسات القرآنية متعددة، وموضوعاتها متنوعة أيضا. ويجدر بالباحث في علم الانتصار أن يحدد بدقة المجال الذي تنتمي إليه القضية المراد دراستها، هل هو مجال التراث؟ أم مجال الاستشراق؟ أم مجال الدراسات الفكرية المعاصرة؟ هذا من جهة. ومن جهة أخرى، هل تندرج القضية ضمن التفسير؟ أم علوم القرآن؟..

٢- صياغة إشكال القضية بوضوح ودقة، وذلك عبر سؤال أو أسئلة.

٣- وضع إجابات محتملة للقضية.

٤- جمع كل ما يرتبط بالقضية موضوع الدراسة، من قريب أو بعيد.

٥- ترتيب المعطيات والمعلومات المتوفرة وفق ترتيب منطقي.

ثانيا: التحليل

يعتمد التحليل على "تجميع الحقائق والمعلومات، ثم مقارنتها وتحليلها وتفسيرها للوصول إلى تعميمات مقبولة"(١). ويعتبر التفسير جوهر منهج

---

(١) **أصول البحث العلمي ومناهجه**، أحمد بدر، (وكالة المطبوعات بالكويت، دار القلم، بيروت، ط ٤، ١٩٨٤)، ص٣١٧-٣١٨.

التحليل في الدراسات الشرعية عموماً، والقرآنية خصوصاً. وقد يكون التفسير هنا جوهر النقد في علم الانتصار؛ لأنه يدلنا عن الأسباب الكامنة وراء القول برأي ما أو غيره.

ويحدد الأنصاري رحمه الله للعملية التفسيرية مستويين:

- مستوى بسيط: ويعني به "شرح القضايا العلمية بتحليل نصوصها وتأويل مشتبهاتها بحمل بعضها على بعض، تقييدا، وإطلاقا، أو تخصيصا، وتعميما، لضم المؤتلف، وفصل المختلف. وإنما يتم ذلك كله بناء على استقراء نصوص الإشكال وإحصائها"(١).
- مستوى مركب: ويقصد به، إضافة إلى ما ذكر في المستوى الأول "تعليل الظواهر، بإرجاع القضايا إلى أصولها، وربط الآراء بأسبابها، وعللها. فإذا كنا في المستوى الأول نبحث في الإشكالات لمعرفة هيآتها وأوضاعها على الحقيقة، فإننا ههنا - بالإضافة إلى ذلك- نبحث فيها، لمعرفة مقتضيات تلك الهيآت والأوضاع وأسبابها. وهذا كله زيادة دقة في الفهم الصحيح وتعميق للتحليل قصد البلوغ إلى التفسير الجامع الشامل"(٢).

ويمكن أن يكون التحليل في علم الانتصار للقرآن باتباع الخطوات التالية:

---

(١) **أبجديات البحث في العلوم الإسلامية** ص ٩٨.

(٢) نفسه.

١- شرح القضية، بشرح المفاهيم المرتبطة بها والغوص في جذورها؛ فإذا كنا مثلا بإزاء قضية خلق القرآن، فإنه يجب علينا البحث عما يعنيه خلق القرآن، وكذلك تاريخ القول به، مع مراعاة الترتيب الزمني.

٢- بيان العلائق بين مختلف الأقوال والمفاهيم المرتبطة بالقضية أينما وجدت.

٣- إدراك الأسباب الرئيسة وراء القضية، مثلا: لماذا قال هذا بخلق القرآن؟ وهذه في الغالب ما تكون خفية غير مصرح بها، على الباحث الوصول إليها بقراءاته المتعددة.

٤- وهذا أهم ما في التحليل، بيان البنية الحجاجية التي وظفها صاحب القضية للدفاع عنها، ما هي الحجج التي ساقها صاحب القول بخلق القرآن ليدافع عن رأيه ويدعمه. إن الإمساك بالبنية الحجاجية للقضية موضوع الدراسة يعني أن الباحث أشرف على النقد وشرع فيه.

ثالثا: النقد

إن النقد هو جوهر علم الانتصار للقرآن للكريم، وغايته، ولب منهجه. والحديث عن الانتصار للقرآن يعني نقد كل ما يخالف ربانية القرآن الكريم وقداسته. والمقصود بالنقد "عملية تقويم، وتصحيح وترشيد... محاكمة إلى قواعد متفق عليها، أو نسق كلي"(١).

لذا، فالنقد، وهو جوهر علم الانتصار، ينبغي أن يكون مؤسسا علميا

---

(١) نفسه ص ٩٩.

ومبينا على قواعد يعرفها أهلها. أما النقد العشوائي المبني على القذف والقد والشتم فهو غير مقصود عندنا. إن مثل هذا النقد يهدم ولا يبني. بل إن شئت فقل إنه سلاح الضعفاء.

إن الغاية من النقد إيجاد أرضية للحوار مع المخالف، بغية تصحيح ما يعتقد أنه خاطئ، أو دعوته إلى تبني ما يعتقد أنه صواب وأنه من الدين. وهذه هي دعوة الإسلام.

٢- أدوات علم الانتصار للقرآن

ليس لأي كان أن يقوم بالانتصار للقرآن الكريم؛ ذلك أن لكل علم أدواته، ولعلم الانتصار للقرآن أدوات خاصة به. وهي تتنوع بتنوع مجالاته وموضوعاته. وكل هذا حتى يؤتي العلم ثماره المرجوة ويحقق مقاصده. وتجد الإشارة إلى أنه من الصعوبة جرد كل الأدوات التي يحتاج إليها المنتصر للقرآن الكريم لارتباطها بموضوع الدراسة والبحث، ولتعددها. لذا سأكتفي بالإشارة إلى ما يمكن أن يعتبر ضروريا. كما أن هذه الأدوات الموزعة على المجالات الثلاثة قد تتداخل فيما بينها حسب طبيعة المهمة والموضوع.

أولا: في مجال الدراسات التراثية

على من ينتصر للقرآن من التراث ما يلي:

١- التمكن الجيد من الدراسات القرآنية التراثية، سواء تعلق الأمر بالتفسير أو علوم القرآن أو غيرهما. وهنا يمكن أن تكون تخصصات حسب الحاجة.

٢- الإحاطة الجيدة بمناهج المحدثين النقدية، وذلك قصد فحص الأخبار وتمحيص الروايات؛ فكم من الروايات تحفل بها كتب التراث وتخالف قداسة القرآن الكريم وربانيته. وقد يكون هذا الأمر هو جوهر علم الانتصار للقرآن في مجال التراث.

٣- الإلمام بالحديث النبوي الشريف إلماما يفي بغرض التعرف على قضايا أسباب النزول والقراءات القرآنية وغيره.

٤- الإحاطة الجيدة بالتراث عموما، كعلم الكلام والفلسفة والتصوف وغير ذلك، حتى يستطيع الباحث نقد الآراء الخاطئة حول القرآن الكريم.

ثانياً: في مجال الدراسات الاستشراقية

على الباحث في مجال الدراسات الاستشراقية المنتصر للقرآن الكريم أن يحوز مجموعة من الأدوات أهمها:

١- التمكن من اللغات الأجنبية التي كُتب بها الدرس القرآني الاستشراقي. ومما يؤسف له أن كثيرا من الذين يتصدون لموضوعات الاستشراق من باحثي الدراسات الإسلامية يعتمدون على الترجمات. وهذا عيب علمي يجعل فهم الباحث مرهوناً بفهم المترجم. وكم هو جميل ومفيد أن يتقن المتخصصون في الدراسات الإسلامية عموماً، والقرآنية خصوصاً، لغة أجنبية واحدة على الأقل. وهذا واجب في حق المنتصر للقرآن.

٢- الإحاطة بتاريخ الدراسات الاستشراقية ومجالاتها وموضوعاتها وأعلامها، على العموم، ومجال الدراسات الاستشراقية حول القرآن الكريم على الخصوص.

٣- فقه مناهج المستشرقين فقها يستطيع معه الباحث إدراك ثغراتها.

٤- الإحاطة بتاريخ الفكر النصراني والحملات التبشيرية.

٥- الإلمام بعقائد الديانة النصرانية، وتاريخ الكتب المقدسة وتدوينها وتفسيراتها.

٣- مجال الدراسات الفكرية المعاصرة

أما الانتصار للقرآن في مجال الدراسات الفكرية المعاصرة فيُقترح على الباحث ما يلي:

١- التخصص في مجال من مجالات الدراسات القرآنية.

٢- التمكن من تاريخ الفكر الإسلامي (علم الكلام، الفلسفة،...)؛ ذلك أن القضايا المطروقة لدى المفكرين الحداثيين شبيهة إلى حد بعيد بقضايا علماء الكلام والفلاسفة السابقين.

٣- الإحاطة بالفلسفة الغربية ومناهجها، كالفلسفة العقلانية والفلسفة المادية وغيرهما.

٤- فقه ما عُرف لدى الغرب بالإصلاح الديني، ذاك الإصلاح الذي كان جوهره نقد الكتاب المقدس(١).

٥- الإحاطة بمناهج العلوم الإنسانية حسب ما يتطلبه الموضوع.

٦- المتابعة المستمرة لإنتاج المفكرين المعاصرين المنتمين للإسلام والمتخصصين في الدراسات القرآنية.

---

(١) ينظر مثلا هنا **رسالة في اللاهوت والسياسة**، باروخ اسبينوزا، ترجمة حسن حنفي، تقديم فؤاد زكريا، (دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٥)، ص ١٢٢ وما بعدها.

خاتمة

تتضمن هذه الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وكذلك بعض التوصيات:

أولا: نتائج البحث

١- لقد تبين من خلال هذا البحث أن الانتصار للقرآن الكريم ليس بالشيء الغريب عن الدراسات القرآنية، رغم أنه لم يُسمَّ علما. وأول ما يمكن الاعتماد عليه في التأصيل لهذا العلم هو القرآن الكريم نفسه. كما أن الانتصار للقرآن كان له نصيب مهم في علم الكلام، حتى إن الباقلاني رحمه الله ألف كتاباً في الرد عن الطاعنين في القرآن سماه: الانتصار للقرآن.

٢- إن واقع الدراسات القرآنية المعاصرة يؤكد الحاجة إلى قيام علم الانتصار للقرآن تكون غايته رد شبهات الدارسين عن القرآن الكريم. فقد كثرت دراساتهم اليوم وتناسلت. وهنا يمكن أن نتحدث أيضا عن الاستشراق بمختلف توجهاته. كما يمكن أن نتحدث أيضا عن دراسات المفكرين الحداثيين المسلمين حول القرآن وقضاياه. كما لا يمكن أن نغفل، تبعا لذلك، ما ورثه المسلمون من تراث فكري بحاجة إلى نقد وتمحيص حتى لا يكون تكأة لكل مغرض.

٣- يمكن أن نجمل مجالات علم الانتصار للقرآن في ثلاثة مجالات هي: مجال التراث، ومجال الاستشراق، ومجال الدراسات الفكرية الحداثية. وتجدر الإشارة إلى أن المجالين الأخيرين يأخذان عن المجال الأول.

٤- إن أساس علم الانتصار للقرآن هو نقد الشبهات والطعون حول القرآن المنافية لربانيته وقدسيته، لذا فإن منهج علم الانتصار هو المنهج النقدي. ولبلوغ هذا النقد لابد من خطوتين رئيستين هما الوصف والتحليل.

٥- بما أن لكل علم أدواته، فإن أدوات علم الانتصار تختلف باختلاف مجال الدراسة. وقد عرض البحث مجموعة من الأدوات المرتبطة بكل مجال من المجالات الثلاثة.

ثانيا: التوصيات

١- ضرورة إعادة النظر في مباحث الدراسات القرآنية، والتأليف فيه بما يتناسب وقدسية القرآن الكريم، واستحضار الشبهات المثارة.

٢- تجديد مناهج الدراسات القرآنية، وذلك بتبصير الطالب بالتحديات التي تعترض سبل الأخذ بالقرآن الكريم، وبالشبهات المثارة حوله، وتمكينه من منهج نقدي يعينه على مواجهة العقبات الفكرية والعلمية بخصوص علوم القرآن والعلوم الإسلامية الأخرى التي يثيرها مغربو عصره.

٣- مزيد بحث في علم الانتصار للقرآن تأصيلاً وتقعيداً وتأسيساً.

٤- تأسيس لجنة بحث تعكف على إعداد كتاب مفصل يكون مرجعاً أساساً لعلم الانتصار للقرآن.

لائحة المراجع المعتمدة

باللغة العربية:

أبجديات البحث في العلوم الشرعية.. محاولة في التأصيل المنهجي، فريد الأنصاري، (منشورات الفرقان، سلسلة الحوار ٢٧، البيضاء، ط ١، ١٤١٧-١٩٩٧).

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (المدينة المنورة، ١٤٢٦).

الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي، (دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠١).

الإسلام والحداثة، عبد المجيد الشرفي، (دار المدار الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩).

أصول البحث العلمي ومناهجه، أحمد بدر، (وكالة المطبوعات بالكويت، دار القلم، بيروت، ط ٤، ١٩٨٤).

الانتصار للقرآن، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، تحقيق محمد عصام القضاة، (دار الفتح- عَمَّان، دار ابن حزم- بيروت، ط ١، ١٤٢٢-٢٠٠١).

باب ذكر المعتزله من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، أحمد بن يحيي المرتضي، تصحيح توما أرنلد، (مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد، الدكن، ١٣١٦).

تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ترجمة جورج تامر، (بيروت، ط١، ٢٠٠٤).

تاريخ حركة الاستشراق.. الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين، يوهان فوك، ترجمة عمر لطفي العالم، (دار المدى الإسلامي، لبنان، ط٢، ٢٠٠١).

التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (دار سحنون، تونس).

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (دار طيبة، ١٤٢٢-٢٠٠٢).

الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (دار الفكر، د.ت).

الحقيقة والمنهج..الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، هانس جورج جادمير، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، مراجعة جورج كتورة، (دار أويا، طرابلس، ط١، ٢٠٠٧).

دراسة سور القرآن وآيه شكلا ومحتوى، ريجيس بلاشير، تعريب محمد المختار العبيدي، (حوليات الجامعة التونسية، العددان ٢١-٢٢، ١٩٨٢-١٩٨٣).

الدليل إلى منهج البحث العلمي، أحمد سيد (ط ١، ١٤٠٥-١٩٨٥).

ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة، عبد الله بن الصديق الغماري، (جمعية آل البيت للتراث والعلوم الشرعية، فلسطين، ٢٠٠٧).

الرد على المستشرق اليهودي جولد تسيهير في مطاعنه على القراءات القرآنية، محمد حسين جبل (ط ٢، ١٤٢٣-٢٠٠٢).

الرسالة العلمية، عبد السلام ياسين، (مطبوعات الهلال، وجدة، ٢٠٠١).

رسالة في اللاهوت والسياسة، باروخ اسبينوزا، ترجمة حسن حنفي، تقديم فؤاد زكريا، (دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٥).

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، (دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤٠٦ – ١٩٨٦).

صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩-١٩٩٨).

فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٥-١٩٩٥).

القرآن.. من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠١).

لبنات، عبد المجيد الشرفي، (دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٤).

مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، (دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٦، ١٩٨٥).

مدخل إلى التعريف بالقرآن الكريم، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، محمد عابد الجابري، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦).

مذاهب التفسير الإسلامي، جولد تسيهير، ترجمة عبد الحليم النجار، (دار اقرأ، بيروت، ط٥، ١٩٩٢).

المراحل الارتقائية لمنهجية الفكر العربي الإسلامي.. المنهج في النسق الفقهي الإسلامي، حسن عبد الحميد عبد الرحمن، (حوليات كلية الآداب بالكويت، الحولية: ٨، الرسالة ٤٤).

مفهوم النص.. دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، (المركز الثقافي العربي، البيضاء، ١٩٩٠).

المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، (بيت الفنون و العلوم و الآداب، الدار البيضاء ٢٠٠٥).

المواقف في علم الكلام، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، (عالم الكتب، بيروت، د.ت).

الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر النحاس، تحقيق سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢-١٩٩١).

باللغة الانجليزية:

Encyclopaedia of the Qur_ān, Jane Dammen McAuliffe, (Brill, Leiden, 2001).

The Encyclopaedia of Islam, prepared by a number of Leading Orientalists, (E. J. Brill, Leiden, 1986).

The Historical Development of the Quran Edward Sell, (London, 1898).

باللغة الفرنسية:

Introduction au Coran, Régis Blachère, (Maisonneuve et Larousse, Paris 1977)

Sémantique Structurale, Algirdas Julien Greimas, (Larousse, Paris, 1966).

كرسي القرآن الكريم وعلومه
Chair of Qur'anic Sciences

جامعة الملك سعود
King Saud University

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies